«الجناس» الصوتيّ والبلاغيّ في اللغة العربيّة

المدرس الدكتور
هناء عبد الرضا رحيم الربيعيّ
جامعة البصرة ـ كليّة التربية

ملخّص :

تعدّ ظاهرة (الجناس) من الظواهر اللغويّة الشائعة في لغتنا العربيّة، وهي ناتجة عن تآلف وحدة لغويّة مع وحدة لغويّة أخرى، لتشابههما، أو تناسبهما، أو ترابطهما في عنصر واحد أو أكثر من عناصرهما اللفظيّة أو الدلاليّة، سواء أكان هذا التآلف عارضاً أم مطّرداً، تآلفاً تقبله اللغة، ويستسيغه السمع، وتستأنس به النفس، ويستجيب له المخاطب؛ لما في ذلك من حمل لأحدهما على الأخرى أو لتجاورهما، وذلك على مستويات اللغة كافة: الصوتيّة، والصرفيّة، والنحويّة، والبلاغيّة، وما ينتج عن ذلك من دلالات لها أثرها الواضح في توجيه المعنى الوجهة التي يرومها المنشئ.

وسنقتصر في هذا البحث على دراسة هذه الظاهرة من خلال الجوانب الصوتيّة، والبلاغيّة، تاركين أمر دراستها صرفيّاً ونحويّاً إلى من يبحثه في المستقبل القريب.

يمثّل (الجناس) الصوتيّ ظاهرة موقعيّة ناتجة عن التأثير والتأثر بين الأصوات المتشابهة المكوّنة للفظ ما، لتناسب هذه الأصوات أو تقاربها، ويدخل ضمن هذا المستوى من المجانسة مجموعة من الظواهر الصوتيّة، منها: الإتباع الحركيّ، وبعض حالات الإدغام، والإمالة، وهي جميعها تعتمد الانسجام الصوتيّ والتقارب بين الصفات التي تتمتّع بها الأصوات، ونعتقد أنّ الحديث عن الجناس الصوتيّ حديث غير مسبوق إليه.

أمّا (الجناس) البلاغيّ فقد تعرّضنا فيه للحديث عن موقف المؤلّفين القدماء والمحدثين منه، وحديثنا عن الموضوع لا يعدّ تكراراً بقدر ما هو نقد لما كُتب في هذا المجال من الاعتماد على آراء السابقين من دون التوقف عند ماهيّة ما قيل في هذا الشأن، فأدّى هذا الأمر إلى تداخل المصطلحات الدالّة عليه، والمفاهيم التي تنضوي تحتها؛ لذا فإنّ عملنا في هذا المجال يتضمّن النظر إلى هذه التداخلات وبيان الأسباب التي أدّت إليها، مع بيان خطّ سير الظاهرة عبر التأريخ، وصولاً إلى استقرار المصطلح الدالّ عليها في علم البلاغة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Phonetics and Rhetoric Paronomasia

Abstract:

Paronomasia is a common linguistic phenomenon in Arabic, it is resulted from coalition of linguistic unit with another unit because of their similarity or paralleling or being linked in one element or more which are phonetic or signal wither this coalition was accidental or absolute, coalition that is acceptable by language and acceptable when listening and acceptable by soul and responsive to individual because of domination one to another or neighboring, upon all language levels: phonetics, Grammar or Rhetoric and signs that are generated and have clear influence in addressing the meaning the destination of the producer.

This research will be restricted to study this phenomenon as far phonetics and rhetoric leaving alone studying its grammar to future.

Phonetics Paronomasia is locative phenomenon resulted from influence and affect among the similar sounds that constitute a spell, to be proper to the sounds or close. A group of phonetic paronomasia enter within this level of paronomasia such as Motional Appending, some assimilation and inclination which are all adopt sound similarity an closure among characters that have sounds, we believe that talking about phonetics paronomasia is new.

We talked about Rhetoric paronomasia as far as the attitude of the ancient and modern writers and we proceed our talking in the topic is merely not repeating more yet it is criticism for what had been written so far without coming across what had said about. This leads to termology clashing that refer to, and the aspects that include them, thus, our work in that aspect include to that clash and clarifying the reasons that led to, with explaining the marching of the phenomenon in history till reaching the stability of the terms referring to it in Rhetoric.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تــقــديــم:

تعدّ ظاهرة (الجناس) ظاهرة لغويّة شائعة في لغتنا العربيّة، وهي ناتجة عن تآلف وحدة لغويّة مع وحدة لغويّة أخرى؛ لتشابهها أو تناسبها، أو ترابطها في عنصر واحد أو أكثر من عناصرها اللفظيّة أو الدلاليّة، تآلفاً تقبله اللغة ويستسيغه السمع، وتستأنس به النفس، ويستجيب له المخاطب، لما في ذلك من حمل لإحداها على الأخرى لتجاورها، سواء كان هذا التالف عارضاً أو مطّرداً، واقعا ًفي مستويات اللغة كلّها: الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والبلاغيّة، وما ينتج عن ذلك من دلالات لها أثرها الواضح في توجيه المعنى الوجهة التي يرومها المنشئ.

وهذه الظاهرة تمثّل ظاهرة صوتيّة، وعلّة صرفيّة، وأساس نحويّ، وهدف أسلوبيّ، ولكنّ الدارس اللغويّ عمل على تحديدها ضمن الدرس البلاغيّ فقط، متناسياً أنَّ علوم اللغة العربيّة هي علم واحد لا يقبل التقسيم، وأنّ العلماء اضطروا إلى تقسيم العلوم لغرض الإفهام والتوضيح لا الفصل والإقصاء. ووجود هذه الظاهرة في البلاغة لا يعني انعدام وجودها في بقية الدرس اللغويّ: الصوتيّ والصرفيّ والنحويّ؛ فاللغة كلّ متكامل في علومها، وورود ظاهرة لغويّة ما في أحّد علومها لا يعني انعدام وجودها في البقيّة؛ فمفهوم الظاهرة واحد ولكنّ التباين ناشئ عن توجّه علماء اللغة إلى التركيز على الجزئيّات المميّزة لكلّ علم ضمن اختصاصه، فعلماء الصوت مثلا ًركّزوا في مفهومهم للجناس على الانسجام الصوتيّ بين الأصوات من منطلق مميّزات هذه الأصوات، وما تتصف به من صفات تتحدّد بالمخرج والصفة، وعلماء البلاغة ركّزوا على ما يحققه الجناس بين الألفاظ من تناغم يسهم في زيادة التأثير في السامع، فيحدث في نفسه الميل إلى الإصغاء إلى نغمته العذبة.

من هذا المنطلق جاءت دراستنا ظاهرة (الجناس) في اللغة، محدّدين دراستها في مستويين من مستويات اللغة: الصوتيّ، والبلاغيّ، تاركين دراستها في بقيّة المستويات لمن يجد الرغبة في بحثها مستقبلا ً، فـــ(الجناس) البلاغيّ في أصله هو (جناس) صوتيّ قائم على تقارب الأصوات في النطق، إلا أنّ (الجناس) البلاغيّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتوسّع في هذا التقارب ليشمل أصوات اللفظة بأكملها من دون الاقتصار على صوت أو صوتين فقط من اللفظة نفسها.

(الجناس) الصوتيّ:

من السنن التي جرت عليها العربيّة سعياً وراء الخفة واليسر في النطق: التغيّرات الصوتيّة في أبنية الكلم، من تقريب الصوت من الصوت، أو المجانسة بينهما، أو صيرورته إلى مثله، أو مخالفته؛ لما يحدثه التماثل بين الأصوات من ثقل على اللسان في بعض الأبنية والصيغ فيتخلّص منه بالتغيّر إلى ما يخالفه(١) هذه التغيّرات التي تتعرّض لها بنية الكلمة تحدث من خلال انسجام الأصوات مع ما يجاورها وتأثيرها فيها، ولا يكون ذلك إلا نتيجة الرغبة في المماثلة والتقريب بين الأصوات؛ ممّا يؤدّي إلى الاقتصاد في الجهد العضليّ، والخفة في النطق، واليسر والسهولة في تناغم الأصوات بعضها مع بعض.

ومن جوانب التغيّر الصوتيّ التي درجت عليها العربيّة سعياً وراء التخفف واليسر في النطق: مسألة التجانس بين الأصوات أو ما يسمى بـــ(الجناس) الصوتيّ، فاللغة العربيّة عرفت الانسجام الصوتيّ لاعتماد الإنسان العربيّ في بداية نشأة العلوم اللغويّة على السمع وحده، إذ لجـــأ إلى ربط الألفاظ فيما اتصل منها في كلامه ربطا ً وثيقا ً أدّى إلى ظهور تلك الحركات التي وصلت بين الكلمات وسميّت فيما بعد بحركات الإعراب (٢).

يقع التجانس بين الأصوات العربيّة عندما تكون الأصوات متّفقة في المخارج، لكنّها مختلفة في الصفات، والأصوات التي يقع بينها التجانس، هي: الذال والثاء والضاء، الدال والضاد والتاء والطاء، اللام والنون والراء، الزاي والسين والصاد. فمخارج هذه الأصوات تكاد تنحصر بين أول اللسان بما فيه طرفه والثنايا العليا، إلا أنّ صفاتها متباينة(٣). وبذلك فالتجانس مثلا ً قد يقع بين: (الدال) و(التاء) لأنّ مخرجهما واحد وهو (نطع) الفم، في حين أنّ صفاتهما مختلفة وإن اتّفقا في الشدّة، فالدال صوت مجهور والتاء صوت مهموس، أوقد يقع بين (الثاء) و(الظاء) اللثويّان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأنّ الصوت الأوّل مجهور والثاني مهموس وهكذا. والتجانس بهذا المفهوم قريب من (التماثل) بين الأصوات حيث تتفق الأصوات مخرجاً وصفة(٤).

على وفق هذا المفهوم فإنّ التأثير الذي يحدث بين الأصوات المتجانسة يتوقف على صفات الأصوات من ناحية القوّة والضعف، فالصوت القويّ له السطوة – غالباً – على إحداث التغيّرات وحسم الأمور لجانبه. وقد عرف الباحثون في اللغة أنّ صفات القوة في الأصوات كثيرة ومتنوّعة، مثل: الجهر، والهمس، والشدّة، والصفير، والإطباق وغيرها. هذه الأصوات القويّة تمنح الحرف قدرته على التأثير في مقاربه، والتقريب بين صفتيّ الصوتين سعياً إلى تحقيق التماثل الذي قد يتحقّق بشكل تأثير(تقدّميّ) بأن يؤثّر الصوت الأول في الثاني، أو بشكل تأثير (رجعيّ) بأن يؤثّر الصوت الثاني في الأوّل، وهذا كلّه لا ينقلب على قانون غلبة الأقوى على الأضعف مثلما سبقت الإشارة(٥).

إنَّ مسألة (الجناس) الصوتيّ جرّت إلى العديد من الظواهر اللغويّة ممّا هو من سنن اللغة وقوانينها. ومن هذه الظواهر:

١ - الإتباع الحركيّ:

معنى الإتباع أن يؤثّر الصوت في الصوت المجاور له أو يتأثر به فيتماثلان في النطق ممّا سمّي عند القدماء بالمضارعة والتقريب والتجنيس، وعند المحدثين بالمماثلة والتوافق الحركيّ والانسجام الصوتيّ (٦) فقد لاحظوا (أنّ الكلمة التي تشتمل على حركات متباينة تميل في تطورها إلى الانسجام بين هذه الحركات)(٧) فتسهم في توفير الجهد المبذول في أثناء عملية النطق. و(الإتباع) في اللغة قد يكون مقبلاً، أي يؤثّر الصوت في الصوت الذي يليه فيحوّله إلى صوت مجانس له، أو قد يكون مدبراً فيؤثّر الصوت في الصوت الذي قبله فيحوّله إلى صوت مجانس له حرفاً كان ذلك الصوت أو حركة.

وقد اعتمدنا إدخال ظاهرة (الإتباع الحركيّ) ضمن مفهوم التجانس الصوتيّ؛ لانّ الحركات في أصل وضعها ما هي إلا حروف لين قصيرة، وحروف اللين هي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أصوات تختلف في درجات صفات أصواتها، فلمّا تحقّق مفهوم التجانس فيما بينها كان من الطبيعيّ أن تكون مسألة التأثير والتأثّر الواقعة بينها ممّا يندرج تحت مفهوم التجانس الصوتيّ.

وقد تمثلت أهم مظاهر هذه الظاهرة الصوتيّة في اللغة العربيّة في عدة جوانب منها(٨):

أ- إنّ الحركة التي تلي حروف (الحلق) تؤثر في الحركة التي تسبقها فيتمّ التماثل الصوتيّ أو الانسجام الحركيّ.

(إنّ قوة حروف الحلق ونصاعة أصواتها له تأثير في الأصوات التي هي أضعف منها جرساً؛ ولهذا كان الصوت المصاحب لصوت حروف الحلق مثل الضمة أو الكسرة أو الفتحة، متمكّناً، قويّاً، ثابتاً بحيث يغيّر حركة الحرف الذي قبله إلى جنسه)(٩). وعلى وفق هذا المفهوم فسّر العرب إتباع الكسر في حروف الحلقِ نحو: رِحِل، مِحِك، جِئِر، وغيرها فقالوا: إنّما أصل بنائه على فَعِل كحَذِر ولكنّهم كسروا فاء الفعل إتباعاً من أجل حرف الحلق، فكسروا فاء الفعل لكسرة عينه. وعلى هذا نقول في رَغيف: رِغيف بكسر الراء ولا نقول في جَريب وقفير: جِريب وقِفير لأنّه ليس تالي حروفهما حرفاً من حروف الحلق (١٠).

وتطّرد هذه الظاهرة في إتباع الكسر في الاسم الجامد أو الصفة، يقول الزبيديّ(ت٣٧٩هـ): (والشِهيد تكسر شينه، وهي لغة تميم وكذا كلّ (فعيل) حلقيّ العين، سواء كان وصفاً كشهيد أو أسماً جامداً كرغيف، وبعير، وأهل الحجاز وبنو أسد بفتح أوائلهن)(١١).

ب- إنّ العرب استثقلت أن يجتمع في اسم واحد من كلامهم ضمّة بعدها كسرة أو كسرة بعدها ضمّة ووجدوا أنّ الكسرتين أو الضمّتين تجتمعان في الاسم الواحد فعلّلوا قراءة (الحمدِ لِله) و(الحمدُ لُله) (الفاتحة /٢) على وفق هذا الأساس فقالوا: (هذه كلمة كثرت على ألسن العرب حتى صارت كالاسم الواحد فثقل عليهم أن يجتمع في اسم واحد من كلامهم ضمّة بعدها كسرة أو كسرة بعده ضمّة، ووجدوا الكسرتين قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل إبِل فكسروا الدال ليكون على المثال من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أسمائهم. وأمّا الذين رفعوا اللام فإنّهم أرادوا المثال الأكثر من أسماء العرب الذي تجتمع فيه الضمّتان مثل: الحُلُم والعُقُب)(١٢).

جــ- إنّ همزة الوصل تكسر إتباعاً لكسر عين الفعل. وقد لجأ العرب إلى هذا الإتباع الحركيّ لتسهيل عمليّة النطق بالساكن، ولتصحيح بناء المقطع العربيّ الذي لا يجيز البدء بالساكن. وقد نبّه الخليل(ت١٧٥هـ) إلى هذه المسألة من خلال ضمّ همزة الوصل إتباعاً لحركة عين الفعل في نحو (أُقْتُل و أسْتُضعِف و أُحتُقِر) فقال معللاً: (وذلك أنّك قربت الألف – أراد الهمزة – من المضموم إذ لم يكن بينهما إلا ساكن فكرهوا كسرة بعدها ضمّة وأرادوا أن يكون العمل من وجه واحد)(١٣). وأراد الخليل بقوله (قرّبت) أنّك جانستَ وضارعت حركة الهمزة والحركة التي تليها؛ لأنّ السكون لا يمثّل حركة، فتحقق التخفيف المقصود في عمليّة النطق، وهذا ما عبّر عنه الخليل بقوله: (العمل من وجه واحد) أي أنْ يعمل اللسان من وجه واحد.

٢-الإدغـــــــام :

يقع الإدغام بين الأصوات المتجانسةَ، ويكون في معظمه من نوع الإدغام الناقص حيث يبقى الصوت الأوّل ظاهراً إلى جانب الصوت الثاني، فلا يحدث فناء لأحدهما في الآخر مثلما هو الحال في الإدغام التام. وهذا الأمر ينطبق على حالتيّ الإدغام (الكبير) حيث يكون الحرف الأوّل متحرّكاً، والإدغام (الصغير) حيث يكون الحرف الأول ساكناً.

إنّ الهدف المتوخّى من الإدغام هو التخفيف والتقريب، فقد كره العرب أن يزيلوا ألسنتهم عن موضع ثم يعيدوها إليه؛ لما في ذلك من التكلف مالا خفاء فيه، فخففوا بالإدغام من أجل ذلك، فادغموا الحروف المتقاربة المخارج ليصبح حال الحرفين المدغمين أشبه بحال الحرف الواحد(١٤) وليكن ذلك أسهل في النطق على اللسان.

والإدغام بين الأصوات المتجانسة لايؤدّي إلى تقريب المخارج فهي من مخرج واحد ولكنّه يؤدّي إلى تقارب الصفات الصوتيّة لكلّ منها، وهذا الأمر يدعونا إلى الحديث عن مدى قوّة الصوت وضعفه؛ لأنّ الإدغام في الأصوات المتجانسة إنّما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو تقريب لصفات الأصوات المدغمة فينتج عنه صوت تجتمع فيه صفات كلّ من الصوتين المدغمين، ولا بد من أن تكون الغلبة لأحدهما.

وتحدّث القدماء عن مسألة قوّة الصوت أو ضعفه وأثره في الإدغام، وممّن تحدّث عن هذه المسألة بإسهاب مكي القيسيّ (ت٤٣٧هـ) إذ قال: (اعلم أنّ الضعف في الحرف يكون بالهمس والرخاوة فإذا اجتمعا في الحرف كان أضعف له ... واعلم أنّ القوّة في الحرف تكون بالجهر وبالشدّة وبالأطباق وبالتفخيم وبالتكرير وبالاستعلاء وبالصفير وبالاستطالة وبالغنّة وبالتفشي ... فبهذه الصفات يقوى، وبعدمها يضعف وكلما تكرّرت فيه الصفة القويّة كان أقوى للحرف وكذلك إذا تكرّرت الصفة الضعيفة كان أضعف... فعلى هذا من الضعف والقوة يبين حسن الإدغام وقبحه)(١٥).

إنّ الإدغام في الأصوات المتجانسة من حيث قوة صفات الحرف أو ضعفها لا يخرج عن ثلاث حالات:

١- أن يكون الصوتان متساويين في القوّة فيحسن الإدغام ولا ينتقص الأول من قوته قبل الإدغام. مثال ذلك قوله تعالى على لسان نوح (عليه السلام): [يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ](هود/٤٢) إذ أُدغم حرف الباء في (اركب) في الميم في (معنا) وهما من مخرج واحد (الشفهَ) وفي كلّ منهما جهر وشدّة، فهما متساويان تقريباً في القيمةَ الصوتيّة.

هذا النموذج من الإدغام الصغير لا يخرج عمّا سنذكره من أمثلة الإدغام الكبير، مثل إدغام الميم في الباء في قوله تعالى: [مَرْيَمَ بُهْتَانًا](النساء /١٥٦) فهما من المخرج نفسه وفي كلّ منهما جهر وشدّة فادغم الأوّل في الثاني. وإدغام الجيم في الشين في قوله تعالى: [أَخْرَجَ شَطْأَهُ](الفتح /٢٩) وهما من المخرج نفسه (شجر الفم) والصوتان متناسبان في القوّة، فالجيم قويّة بجهرها وشدّتها والشين متفشية.

٢- أن يكون الحرف الأول أضعف من الثاني فيصير بالإدغام إلى زيادة قوّته؛ لأنّ صفته تنتقل من الضعف إلى القوّة وتقرب منها، مثال ذلك إدغام التاء في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطاء في قوله تعالى: [قَالَتْ طَائِفَةٌ](آل عمران /٧٢) فالتاء حرف ضعيف للهمس الذي فيها، والطاء حرف قويّ للإطباق والجهر والاستعلاء والشدّة اللواتي فيه فهو أقوى من التاء كثيراً، فإذا أدغمت التاء كأنّك قلبتها من ضعف إلى قوة مكرّرة أي أنّك جهرت بالتاء فأصبحت دالاً فأصبح لا فرق بينهما إلا الإطباق وهذا لا تكاد العرب تظهره، وأجمع القرّاء كذلك على الإدغام في هذا النوع لما فيه من الحسن. ومثله إدغام السين في الزاي في قوله تعالى: [وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ](التكوير /٧) فهما من المخرج نفسه والزاي أقوى بالجهر الذي فيها فحسن الإدغام.

وهذان النوعان من الإدغام يمثّلان نسبة كبيرة من حالات إدغام الأصوات المتجانسة، وهما من حالات الإدغام الحسن.

٣- ذكر اللغويّون القدماء أنّه ممّا يقبح في الإدغام قوّة الصوت الأوّل وضعف الثاني نحو إدغام الرّاء في اللام، فهو قبيح لقوة الرّاء بالجهر والتكرير اللذين فيه، وضعف اللام لعدم التكرير فيه وضعف الجهر الذي فيه فإذا أدغمت نقلت الأقوى إلى الأضعف وذلك مكروه ضعيف. وقد علّل القرّاء هذا الإدغام في مثل قوله تعالى: [فَاغْفِرْ لَنَا](آل عمران /١٦) بأنّ الراء إذا أدغمت في اللام صارت لاماً، ولفظ اللام أسهل واخفّ من أن تأتي براء فيها تكرير وبعدها لام وهي مقاربة للراء فيصير مثل النطق بثلاثة أحرف من مخرج واحد فطلب التخفيف بذلك(١٦). والذي يبرّر هذا الإدغام قرب المخرج، وأنّهما من الأصوات المتوسطة بين الشدّة والرخاوة ويمتازان بوضوحهما السمعيّ. وقد احدث هذا الإدغام بعد الفاء صفة التكرير(١٧).

ومثله إدغام الدال في التاء، فالدّال صوت مجهور شديد، أمّا التاء فهو أضعف لأنّه مهموس شديد ومع ذلك عدّ ابن مجاهد إظهار الدّال عند التاء خروجاً من كلام العرب فقال: (وأمّا ما لا يجوز إظهاره فقوله:[قَدْ تَبَيَّنَ](البقرة /٢٥٦) و [لَقَدْ تَرَكْنَا](العنكبوت /٣٥) و [قَالَتْ طَائِفَةٌ](آل عمران /٧٢) و [هَمَّتْ طَائِفَتَانِ](آل عمران/١٢٢) وما أشبه)(١٨). وقد علّل سيبويه(ت١٨٠هـ) هذه الظاهرة بقوله: (ما يدخل في الحرف وهو في موضعه يعني مثل (قدْتُ) حيث تدغم الدال في التاء؛ لأنّها بمنزلة تاء أُدخلت على تاء)(١٩). وسيبويه لم يهمل صفة الصوت في مثل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الإدغام ولكنّه يقدّم تقارب المخارج عليه إذ قال: (الإظهار كلّما تباعدت المخارج أزداد حسناً)(٢٠)، أمّا وقد إتّحدت المخارج فالإخفاء أحسن. ويقع الإخفاء في الحرف الأوّل ممّا يؤدي إلى أن تضعف صفته قياساً إلى الصوت الثاني فيتمّ الإدغام ويكون حسناً في الكلام لأنّ صفة الصوت الأول أصبحت مخفيّة منه.

٣ - الإمالـــــــــــة :

وحقيقتها أن تنحو بالإلف نحو الياء، ولا يكون ذلك إلا لعلّة تدعو إليها(٢١)، والعرب أمالوا المفتوح مثلما أمالوا الألف؛ لأنّ الفتحة من الألف، وشبه الفتحة بالكسرة مثل شبه الألف بالياء، فأرادوا بها أن يقرّبوها منها(٢٢). أمّا الغرض من إحداث هذا التقريب فهو التخفيف على المتكلّم من حيث انسجام الأصوات مع ما يجاورها، واختصار جهد الجهاز الصوتيّ باستعمالها.

ذكر القدماء للإمالة عدّة أسباب إلا أنّنا لا نستطيع أنْ نفسّر الإمالة بالتجانس الصوتيّ إلا في حالتين:

أ- الإمالة للكسر أو الياء.

ب- الإمالة للإمالة.

أ- الإمالة للكسر أو الياء:

إنّ الحجّة التي يستند إليها مَنْ يميل الألف نحو الياء هي أنّ الألف قُرّبت نحو الياء لتقرب من لفظ الكسر لأنّ الياء من الكسر ولم يكن ذلك حتى قربت الفتحة التي قبل الآلف نحو الكسر ليعمل اللسان عملاً متسقلاً فذلك أخفّ من أن يعمل متصعداً بالفتحة والإلف ثم يهبط متسقلاً.

والإمالة قد تكون من الألف نحو الياء، وقد تكون من أجل الكسرة قبل الحرف أو بعده. ومن الأمثلة على ذلك:

- إمالة الألف في (الكافِرين)؛ وعلّة الإمالة فيها الكسرة الواقعة بعد الألف، فضلاً عن كسرة الراء والياء فحسنت إمالة الألف لتوالي الكسرات وهذه مجانسة صوتيّة اكتملت بجعل الألف قريبة من الياء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- ومثلها إمالة الألف في (كلاهما) من قوله تعالى: [أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا](الإسراء/٢٣) والسبب هو الكسرة التي وقعت على الكاف، والحرف الواحد أو الحرفين لا يمنعان ولا يحجزان الإمالة إذ أمالت العرب الألف للكسرة التي قبلها.

وقد حدثت الإمالة في المثالين السابقين لخصوصيّة الحالتين إذ أنّ صفات الأصوات فيها تيسّر ذلك لما تحدثه في الكلمة من تجانس صوتيّ يسهم في تحقيق الإمالة.

ب- الإمالة للإمالة:

وتمال الألف أو الفتحة لأجل ألف أخرى أو فتحة أخرى ممالة (وتدخل الإمالة للإمالة في التجانس الصوتيّ والاقتصاد في الجهد العضليّ لكي لا يجمع القارئ في جهازه الصوتيّ بين عمليّتين مختلفتين، وهي أثر من آثار مجاورة الأصوات ورغبة في المماثلة أو التقريب كما وصفها ابن جنّي فجعل الإمالة إدغاماً أصغر)(٢٣).

ومن أمثلة الإمالة من هذا النوع الإمالة في لفظة (رأى) إذ أميلت الألف التي بعد الهمزة لتقرب من أصلها وهو الياء، وأميلت فتحة الهمزة ليوصل ذلك إلى إمالة الألف، وأميلت الراء لإتيان حرفين ممالين بعدها. ومثله (نأى) إذ أُميلت فتحة النون. ومنه الإمالة في قوله تعالى: [تَرَاءَى الْجَمْعَانِ](الأنفال/٤١) إذ أمال (تراءى) حمزة الزيّات (ت١٥٦هـ) وقد أجتمع فيها أربعة أحرف ممالة متوالية: الراء والألف التي بعدها والهمزة المخففة والألف التي بعدها، وقد وقف حمزة على الألف التي بعد الهمزة فأمالها إلى أصلها وهو الياء؛ لأنّه من (رأى) فيميل الألف ليقرّبها من أصلها، ولا تتمكّن الإمالة في الألف حتى يميل ما قبلها نحو الكسرة وهو الهمزة المفتوحة، ومن شأنه تخفيف الهمزة في الوقف فيخففها بعد ألف ممالة. ولم يمكنه إمالة الألف التي بعد الراء لإمالة ما بعدها حتى يميل فتحة الراء إلى الكسر، ولم يمل الراء والألف التي بعدها عند حمزة في وصله ووقفه(٢٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والإمالة لكسر أو الإمالة لإمالة هي انسجام بين الأصوات التي يطلقها المتكلم. والإذن العربيّة ترتاح إلى ترديد الأصوات في غير مبالغة مثلما يحدث في السجع والقوافي الشعريّة فرويّها المتشابه مدعاة طرب عندهم، ولكنّ ازدحام الكلمات بأصوات مكرّرة مكروه، فالعرب لا تحبّ التكرار إلا لداع ٍ(٢٥)، والتجانس الصوتيّ يحقّق هذا الداعي، إذ أنّهم لجأوا إلى تكرار الصوت من خلال ظاهرة الاتباع الحركيّ، أو الإدغام، أو الإمالة ؛ لما تحققه هذه الظواهر من تخفيف للثقل المترتّب من نطق صوتين متباينين في مخرجهما أو صفتها، فيصبحا من خلال التجانس المتحقق بينهما أكثر سهولة في النطق، وأكثر استساغة في السمع.

(الجناس) البلاغيّ:

(الجناس) عند البلاغيين يمثّل أحد ضروب المحسّنات البديعيّة القائمة على المماثلة اللفظيّة، ولهم فيه تعريفات كثيرة، إلا أنّهم يكادون يجمعون على أنّ المراد بالتجنيس: اتفاق الألفاظ في تأليف كلّ حروفها أو بعضها، واختلافها في دلالتها. وهنا تتقارب الظاهرة اللغويّة (الجناس) في الميدان البلاغيّ من مثيلتها في الميدان الصوتيّ؛ فكلاهما له محوران: اتفاق، واختلاف، فالتجانس الصوتيّ يحدث بين أصوات: متّفقة أو متقاربة في المخارج، مختلفة في الصفات. أمّا التجانس البلاغيّ فيحدث بين ألفاظ: متّفقة أو متقاربة الحروف، مختلفة المعاني.

عرف قدماء البلاغيّين فن (الجناس) واستعملوه لكنّهم لم يطلقوا عليه تسمية (الجناس) وإنّما جاءت التسمية من علماء اللغة الذين قاسوه على نظائره فجعلوا الجناس حال كلمة بالنسبة إلى أختها وكذلك المجانسة(٢٦)، فالجنس: الضرب من كلّ شيء، ومنه المجانسة والتجنيس، يقال: هذا يجانس هذا أي يشاكله، وفلان يجانس البهائم ولا يجانس الناس إذا لم يكن له تمييز ولاعقل(٢٧). قال الخليل: الجنس لكلّ ضرب من الناس والطير والعروض والنحو ومنه ما تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها(٢٨). ولا يقصد الخليل في كلامه الغرض البلاغيّ المعروف بـــ(الجناس) وإنّما قصد المشابهة الواقعة بين الألفاظ أي المعنى اللغويّ للجناس، فالأساس في التسمية هو المماثلة والمشابهة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمّا إطلاق هذه التسمية على هذا النوع من الكلام فقد علل له ابن الأثير(ت ٦٣٧هـ) بقوله: (لأنّ حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد. وحقيقته أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً، وعلى هذا فإنّه هو: اللفظ المشترك، وما عداه فليس من التجنيس الحقيقيّ في شيء إلا أنّه قد خرج من ذلك ما يسمى تجنيساً، وتلك تسمية بالمشابهة، لا لأنّها دالّة على حقيقة المسمّى بعينه)(٢٩). فالتجنيس الحقيقيّ ما وقع بين لفظين متّفقين كليّاً من ناحية الألفاظ، أما ما جاء متشابهاً في تأليف الحروف فهو جناس غير حقيقيّ جارٍ على المجاز؛ لأنّه واقع اعتماداً على تشابه الاتفاق بين اللفظين لا على الحقيقة. وربّما يكون ابن الأثير قد قرأ من خلال تعليله هذا سبب اختلاف القدماء في تسمية هذا الفن البلاغيّ، إذ نظروا إلى الجناس على أنّه جناس حقيقيّ، فقد أشار سيبويه (ت١٨٠هـ) إلى الجناس في كتابه وسمّاه: اتفاق اللفظين والمعنى مختلف(٣٠)، وفي هذا الغرض ألّف الأصمعيّ (ت٢١٦هـ) كتابه (الأجناس) وسار فيه على أساس نظرة الخليل له (٣١)، وألّف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) كتاب (الأجناس من كلام العرب، وما أشتبه في اللفظ وأختلف في المعنى)(٣٢)، وذكر المبرّد (ت٢٨٥هـ) مثل ذلك(٣٣)، وله كتاب سمّاه: ما أتّفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد(٣٤) إلا أنّ الاختلاف في التسمية وقع عند ثعلب (ت٢٩١هـ) في كتابه (قواعد الشعر) وله ما يبرّر ذلك فقد أطلق ثعلب تسمية (المطابق) على ما وقع من الجناس الحقيقيّ أي الذي يتطابق فيه اللفظان، فقال في تعريفه له: (هو تكرّر اللفظة بمعنيين مختلفين)(٣٥) وتابعه قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) في تسميته هذه اعتمادا ً على مفهومه للجناس نفسه، وقسّم هذا الفن الذي عدّه من نعوت جودة ائتلاف اللفظ والمعنى إلى: المطابق والمجانس، (وقد يضع الناس من صفات الشعر المطابق والمجانس، وهما داخلان في باب ائتلاف اللفظ والمعنى. ومعناهما أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة، وألفاظ متجانسة مشتقة)(٣٦). وقد بيّن قدامة معنى (المطابق) بأنّه ما يشترك في لفظة واحدة بعينها، مثل قول زياد الأعجم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونبئتهم يستنصرون بكاهــلٍ   وللــؤم فيهم كاهــلٌ وسنــامُ

فالجناس وقع بين لفظة (كاهل) الأولى التي دلّت على اسم قبيلة، و(كاهل) الثانية التي دلّت على موضع ما بين الكتفين، وهو جناس تامّ. أمّا (المجانس) فهو أن تكون المعاني تشترك في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق، مثل قول زهير:

كأنّ عيني وقد سال السليلُ بهم   وجيرةٌ مــا هــمُ لــو أنّــهم أَمَــمُ (٣٧)

وقد وقع الجناس في البيت السابق بين لفظة (سال) و (السليل) والرابط هو الاشتقاق الواقع بين اللفظين، فهو جناس غير تامّ.

فـــ(المطابق) عند قدامة هو الجناس الحقيقيّ، و(المجانس) هو الجناس غير الحقيقيّ.

والخلاف لم يقع على الحقيقة لأنّ المعنى المقصود من الجناس واحد والدليل أنّ ثعلباً فرّق بين (الجناس) و(الطباق) بتكرار اللفظ المتحقق في الأوّل من دون الثاني، فضلاً عن أنّه أطلق على مفهوم الطباق مصطلح (مجاورة الأضداد) ولم يدخل مفهوم الجناس تحت هذا المصطلح(٣٨) و قدامة فعل الأمر نفسه فهو عندما يستدل بالشواهد على فن (المطابق)- مثلما يسمّيه- يذكر ما أنشده ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) من شواهد عن فن الجناس(٣٩) فليس هناك ثمة اختلاف في الواقع وإنّما هو خلاف في التسمية فقط انطلاقاً من وقوع هذه الظاهرة بين الألفاظ، إلا أنّنا نجد أنّ هناك منْ وسّع دائرة الحكم على وقوع الخلاف حول المصطلح ليجعله شاملاً للمفهوم أيضاً ومن ذلك ما ذكره الحاتمي (ت٣٧٧هـ):- (أخبرنا أبو الفرج عليّ بن الحسين القرشيّ قال: قلت لأبي الحسن عليّ بن سليمان الأخفش وكان أعلم من شاهدته بالشعر: أجد قوماً يخالفون في الطباق فطائفة تزعم – وهي الأكثر – بأنّه ذكر الشيء وضده فيجمعهما اللفظ فهماً لا المعنى. وطائفة تخالف ذلك فتقول: هو اشتراك المعنيين في لفظ واحد كقول زياد الأعجم:

ونبئتهم يستنصرون بكاهلٍ   وللؤم فيهم كاهلٌ وسنامُ

فقوله (كاهل) للقبيلة، وقوله (كاهل) للعضو عندهم هو المطابقة، قال: فقال الاخفش: منْ هذا الذي يقول هذا ؟ قلت: قدامة وغيره...فقال: هذا يابنيّ هو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التجنيس، ومَنْ زعم أنّه طباق فقد ادّعى خلافاً على الخليل والأصمعيّ. فقيل له: أفكانا يعرفان هذا ؟ فقال: سبحان الله وهل غيرهما في علم الشعر وتمييز خبيثه من طيّبه)(٤٠). وما ذكره أبو الفرج القرشيّ عن رأي قدامة وغيره في اللفظين (كاهل) بأنّه من المطابقة لا يتعارض مع قول الأخفش من أنّه من (الجناس) إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ المطابقة على وفق مفهوم قدامة تعني الجناس، فالخلاف واقع في نظرة كلّ جانب إلى التسمية المناسبة لهذه الظاهرة.

أنواع الجناس:

الجناس أنواع عديدة، ومثلما لاحظنا سابقاً فإنّ القدماء ركّزوا على نوعين منه هما: الجناس الحقيقيّ حيث يتطابق فيه اللفظان تطابقاً تامّاً، والجناس غير الحقيقيّ حيث ينعدم التطابق بين اللفظين وتتوفّر المشابهة في جانب واحد أو أكثر منهما. وسنحاول هنا أنْ نركّز على ابرز التقسيمات التي آلت إليها نظرة البلاغيين في العصور اللاحقة.

قسّم البلاغيون الجناس على نوعين: تامّ وناقص، ويندرج تحت كلّ نوع من هذه الأنواع تفريعات تناسب العنوان الدالّ عليها، وهي كالآتي:

١ - الجناس التـــــــام :

(وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أشياء: نوع الحروف، وعددها، وهيآتها الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيبها، مع اختلاف المعنى)(٤١). ويمثّل هذا النوع أعلى درجات الجناس بلاغة عند البلاغيّين. ويسميه القاضي الجرجانيّ (المستوفي)، ويسميه ابن رشيق وأسامة بن منقذ (المماثل)، ويسميه ابن الأثير (الحقيقيّ)(٤٢).

والحقيقة أنّ هذه التسميات المتعدّدة تمثّل فروقات دلاليّة متباينة بين الألفاظ المتجانسة، تكلّم عنها القزوينيّ، فقال: (والتامّ منه: أنْ يتّفقا في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئآتها، وترتيبها، فإنْ كانا من نوع واحد – كأسمين – سمّي مماثلاً، مثل قوله تعالى: **[** وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ **]** (الروم/٥٥)...وقول أبي تمّام:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذا الخيلُ جابت قسطلَ الحربِ صدّعوا   صدورَ العوالي في صدورِ الكتائب

وإنْ كانا من نوعين– كاسم وفعل – سميّ مستوفي، كقول أبي تمّام أيضاً:

ما مات من كرم الزمان فإنه   يحيا لدى يحيى بن عبد اللهِ)(٤٣)

وقد ألحق البلاغيون بهذا النوع ما يعرف بتجنيس الاشتقاق: وهو أن يجمع بين اللفظين أصل اشتقاقي واحد (٤٤)، مثل قوله تعالى: **[**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ**]**(الروم /٤٣)، وقوله تعالى: **[** فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**]**(الواقعة /٨٩)، فالاشتقاق يوجد تشابهاً في كثير من جوانب اللفظين؛ لذا ألحق هذا النوع بالجناس التام لكونهما يعودان إلى أصل اشتقاقيّ واحد، أمّا إذا لم يجمعهما أصل واحد فيسمّى الجناس مطلقاً. وقد فرّق الحمويّ (٤٥) بينه وبين الجناس الاشتقاقيّ فقال:(أمّا الجناس المطلق فلشدّة تشابهه بالمشتق يوهم أحد ركنيه أنّ أصلهما واحد وليس كذلك كقوله تعالى: **[**وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ**]**(يونس /١٠٧)، وكقوله تعالى: **[**لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ**]**(المائدة/٣١)(٤٦). وقد نفى الحمويّ أن يكون هذا النوع – أي الاشتقاقيّ – من الجناس فقال: (... فإنّ المشتّق غلط فيه جماعة وعدّوه تجنيساً وليس الأمر كذلك فإنّ معنى المشتق يرجع إلى أصل واحد، والمراد من الجناس اختلاف المعنى في ركنيه، والمطلق كلّ ركن منه يباين الآخر في المعنى)(٤٧)، وهي وجهة نظر لا تخلو من صحة.

٢ - الجناس الناقص:

ويقال له المشبّه ويأتي على أنواع مختلفة، لفظيّة ومعنويّة، يجمعها تشابه جزئيّ في تركيب حروف الألفاظ، بزيادة حرف أو نقصانه أو بتقديم أو تأخير(٤٨) وجميع هذه الأنواع لا يتماثل اللفظ فيها تماثلاً تامّاً مثلما هو الحال في الجناس التامّ وإنّما يقع التماثل في جزئيّات اللفظين، فقد يختلفان في زيادة حرف:

- كأن يكون في أوّل اللفظ نحو قولهم: (دوام الحال من المحال) فيسمّى الجناس (المردوف).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- أو تكون الزيادة في وسط اللفظ نحو قولهم: (جدّي جهدي)، فيسمّى الجناس (المكتنف).

- أو تكون الزيادة في آخر اللفظ، نحو قولهم:(الهوى مطيّة الهوان)، فيسمّى الجناس (المطرّف).

وقد يتوافق اللفظان في الحروف، وترتيبها من دون أن يجمعهما اشتقاق فيسمّى الجناس (المطلق)، مثل قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): (أسلم سالمها الله وغفّار غفر الله لها، وعصيّة عصت الله ورسوله).

فإن جمع اللفظين اشتقاق سمّي جناس (الاشتقاق) نحو قوله تعالى: [لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ _ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ](الكافرون/٢، ٣)، ومنه الجناس (المذيّل) ويكون الاختلاف فيه بأكثر من حرفين في آخره. ومنه الجناس(المطرف) ويكون الاختلاف فيه بزيادة حرفين في أوّله.ومنه الجناس(المضارع) ويكون الاختلاف في ركنيه في حرفين لم تتباعدا مخرجاً، أمّا في الأوّل، نحو قولهم: (ليل دامس، وطريق طامس)، وأمّا في الوسط، نحو قوله تعالى: [وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ] (الأنعام/٢٦)، وأمّا في الآخر، نحو قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة). ومنه الجناس (اللاحق) ويكون الاختلاف بين ركنيه في متباعدين في المخرج، أمّا في الأوّل نهو قوله تعالى: [هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ] (الهمزة/١)، أو في الوسط، نحو قوله تعالى: [وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ _ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ] (العاديات/٧، ٨)، وأمّا في الآخر نحو قوله تعالى: [وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ](النساء/٨٣)(٤٩).

والملاحظ أنّ أغلب هذه الأنواع قد استعملها الشعراء في أشعارهم بكثرة لغرض تقوية الجرس الموسيقيّ لقصائدهم وهم قد يتمحلون ذلك تمحلاً، وعليه فإنّ (الصلة النغميّة في هذا النوع من الجناس هي التي كان يتقصّدها الشاعر في نظمه، لتقوية الجرس في ألفاظه، وبه أشبه التجنيس الحقيقيّ)(٥٠). هذا الأمر يفسّر لنا هذه الكثرة الكاثرة من أنواع الجناس الخالية من الذوق الفنيّ في أحيان كثيرة لدى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشعراء؛ لأنّ الشاعر كان يفرضها- في بعض الأحيان- على شعره فرضاً يفقدها قيمتها، ربّما لهذا السبب ألحق القدماء الجناس غير الحقيقيّ- وهو موضوعنا هنا- بالجناس الحقيقيّ؛ لأنّ الجناس الحقيقيّ عندهم ما جاء اتفاقاً في الكلام من غير تعمّد ولا فرض، أما شبيهه فهو ملحق بحكمه، لا يساويه من ناحية الأهمية.

إنّ الجناس أساساً يمثّل نوعاً من أنواع المحسّنات اللفظيّة، وبما أنّه يندرج تحت هذا النوع فهو يتحقق بشرط توافر لفظين يتّفقان كليّاً أو جزئيّاً، ويختلفان في المعنى. وعند غياب أحد هذه الشروط ينتفي الجناس ويتحول إلى مجرّد تكلّف لفظيّ لا يحقّق الغرض المتوخّى منه، فتحسينه للكلام مشروط بوجوده فيه، ولكنّنا نجد في بعض أنواع الجناس التي اصطلح عليها المتأخّرون اقتضاء حذف أحد ركني الجناس أو كليهما معاً مثلما هو الأمر في جناس (الإشارة) و(الإضمار)، إذ يضمر أحّد ركنيّ الجناس في جناس الإشارة لعدم موافقة الوزن على اظهاره فيعدل إلى مرادف فيه كناية تدلّ على الركن المضمر، مثال ذلك قول امرأة من بني عقيل وقد أراد قومها الرحيل عن بني ثهلان، وتوجّه قوم منهم لاحضار الإبل:

فما مكثنا دام الجمال عليكما بثهلان إلا أن تشدّ الأباعر

أرادت أن تجانس بين (الجمال) و(الجمال) فلم يساعدها الوزن ولا القافية، فعدلت إلى مرادفة الجمال بالأباعر (٥١).

وفي جناس (الإضمار) يضمر الناظم أحّد ركنيّ التجنيس في الظاهر بما يرادف المضمر للدلالة عليه، فإن تعذّر المرادف أتى بلفظ فيه كناية لطيفة تدلّ على المضمر بالمعنى، كقول أبي بكر بن عبدون وقد اصطبح بخمرة ترك بعضها إلى الليل فصارت خلاً:

ألا في سبيل اللهو كأس مدامة أتتنا بطعم عهده غير ثابت
حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة وأمست كجسم الشنفرى بعد ثابت

فبنت بسطام بن قيس كان اسمها (الصهباء)، والشنفرى قال:

أسقنيها يا سواد بن عمرو إنّ جسمي من بعد خالي لخلّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخلّ هو الدقيق المهزول، فظهر من كناية اللفظ الظاهر جناسان مضمران في صهباء وصهباء، وخلّ وخلّ (٥٢).

وفي هذين النوعين من الجناس تتنافى الشروط الموضوعيّة للجناس من ذكر طرفيه ، وما أورده الشعراء من شواهد شعريّة جاء أشبه بالألغاز القائمة على التفكير المنطقيّ والعقليّ مثلما هو حال أغلب أنواع الجناس التي ذكرها المتأخّرون، ولكنّ هذا الأمر لا يقلل من قيمة الجناس الفنيّة والذوقيّة بوصفه ضرباً من ضروب التكرار المؤكّد للنغم.

فائدة الجناس:

إنّ (الجناس) بوصفه فنّاً بلاغيّاً لابدّ من أنْ يحقّق غرضاً تعبيريّاً يتوخّاه المتكلّم من وروده في كلامه، وأغلب المصادر القديمة تكتفي بإيراد الشواهد الدالّة عليه من دون ذكر لفائدته، إلا أنّ أقرب القدماء الذين ذكروا أنّ للجناس فائدة هو عبد القاهر الجرجانيّ (ت٤٧١ أو ٤٧٤هـ)(٥٣) فقد بيّن هذه الفائدة من خلال حديثه عن الشواهد الشعريّة التي أوردها أنموذجاً عن هذا الفن فقال: (...فجمال الجناس يرجع إلى هذا الخداع المغري الذي جعلنا الشاعر فيه نظنّ أنّ معنى الكلمة الثانية هو معنى الكلمة الأولى، وسرعان ما ننتبّه إلى أنّها غيرها وأنّها تعطينا شيئاً جديداً، وكأنّها عطيّة غير مرتقبة، وكلّ هذا يرجع إلى المعنى النفسيّ لا إلى صوت الحروف الحسيّ ... ومن أجل ذلك حسن الجناس لما تضمّن من هذه المفاجأة ومن هذا الخداع)(٥٤). فالحسن الواقع في الجناس راجع إلى عنصر المفاجأة للسامع بأمر غير مرتقب لا يتوقعه، إذ يتبادر إلى ذهنه أنّ الكلام مكرّر ليس فيه جديد ولكنّه في الحقيقة يتفاجأ من دون أنْ يشعر بعكس ذلك. ومرجع هذا الحسن – مثلما يشير الجرجانيّ – راجع إلى المعنى فضلاً عن اللفظ، وقد بيّن الجرجانيّ أنّ الغرض من الجناس هو حسن الإفادة مع أنّ الصورة صورة التكرير والإعادة(٥٥).

أمّا ابن الأثير(ت٦٣٧هـ) فقد أرجع الفائدة من التجنيس إلى تحسين الكلام فقال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(وأما التحسين فإنّ الواضع لهذه اللغة العربية التي هي أحسن اللغات، نظر إلى ما يحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيمّا يصوغونه من نظم ونثر، ورأى أنّ من مهمّات ذلك: التجنيس، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة)(٥٦)، ولكنّ ابن الأثير لم يبيّن المقصود من هذا التحسين وإنّما جعل الكلام عامّاً: (إعلم أنّ التجنيس غرّة شادخة في وجه الكلام)(٥٧). وتابعه في عموميّته هذه يحيى بن حمزة العلويّ (ت٧٤٩هـ) في قوله عن الجناس: (وهو من ألطف مجاري الكلام ومحاسن مداخله، وهو من الكلام كالغرّة فـــي وجه الفرس)(٥٨).

ولابن الأثير الحلبيّ (ت٧٣٧هـ) محاولة في هذا الميدان فقد تنبّه إلى مسألة عدم وضوح الفائدة المتوخّاة من الجناس عند القدماء وحاول أنْ يبحث فيما كتبوه ليكشف عن فائدته وغرضه فقال: (غير أنّهم عبّروا عن ذلك بشيء يشبه أنْ يكون فائدة للتجنيس، فإنّهم قالوا: إنّ تشابه ألفاظ التجنيس تحدث بالسمع ميلاً إليه، فإنّ النفس تتشوّف إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين، وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذلك اللفظ فصار للتجنيس وقع في النفوس وفائدة)(٥٩). ورأي ابن الأثير الحلبيّ إنّما هو(... تقرير لقيمة الجرس في التجنيس من خلال ما تحدثه الألفاظ المتجانسة في التعبير من إثارة وخيال لاستجلاء المعنى، فإنّ ترجيح الألفاظ المتشابهة تدقّ السمع وتوقظ الأذهان وتتشوّف لوقعها النفوس)(٦٠). وهذا الرأي أقرب الآراء إلى حقيقة الفائدة المتحققة من ورود الجناس في الكلام، فهو ضرب من ضروب التكرار المؤكّد للنغم من خلال التشابه الكلّي أو الجزئيّ في تركيب الألفاظ، وهذا التشابه الصوتيّ يدفع الذهن إلى التماس معنى تنصرف إليه اللفظتان بما يثيره من انسجام بين نغم التشابه اللفظيّ ومدلوله على المعنى في سياق الكلام (٦١). وهذه الفائدة لا تتوقف على حدوث ظاهرة (الجناس) في البلاغة فقط وإنّما تنعكس على (الجناس) الصوتيّ أيضا ً، فالجناس البلاغيّ في أصله جناس صوتيّ يركّز على انسجام الأصوات فيما بينها لتقوية جرس الألفاظ ونغميّتها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهوامــــــــــش

(١) ظ: مباحث في علم اللغة واللسانيّات: د. رشيد العبيديّ: ٩٨.

(٢) ظ: في البحث الصوتيّ عند العرب: د. خليل إبراهيم العطيّة:٧٦.

(٣) ظ: الأصوات اللغويّة: إبراهيم أنيس:٤٦.

(٤) ظ: النشر في القراءات العشر: أبو الحسين محمد بن الجزريّ:٢٧٨/١.

(٥) ظ: الأصوات اللغويّة:١٨١، مباحث في علم اللغة واللسانيّات:٩٨ – ١٠٢.

(٦) ظ: الكتاب لسيبويه:٤ / ١٠٨، في اللهجات العربيّة: إبراهيم أنيس: ٨٦.

(٧) في اللهجات العربيّة: ٩٦.

(٨) ظ: بحث: جهود الكوفيين في علم الأصوات: د.خليل العطيّة:٥٧ –٥٩.

(٩) مباحث في علم اللغة واللسانيّات: ١٣٢.

(١٠) ظ: الخصائص: ابن جنّي:٢ / ١٤٣، المنصف: المازنيّ:١ / ١٩.

(١١) المنصف:١/ ١٩.

(١٢) معاني القرآن: الفرّاء:١ / ٣، ٤، إعراب القرآن: النحّاس:١ / ١٢٠.

(١٣) الكتاب: ٤/ ١٤٦.

(١٤) ظ: المصدر السابق: ٤٤٥/٤.

(١٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: القيسيّ:١ / ١٣٧– ١٣٨.

(١٦) ظ: إدغام القرّاء: السيرافيّ: ٤١.

(١٧) ظ: في اللهجات العربيّة: ١٤٤ – ١٤٥.

(١٨) السبعة في القراءات: ابن مجاهد: ١١٥.

(١٩) الكتاب: ٤ / ٢٤٠.

(٢٠) المصدر السابق: ٤ / ٤٤٦.

(٢١) ظ: المقتضب: المبرِّد:٤٢/٣.

(٢٢) ظ: الكتاب:٤ / ١١٧، ١٤٢.

(٢٣) الخصائص:٢ / ١٣٩.

(٢٤) ظ: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: ١ /١٩١ – ١٩٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٢٥) ظ: القراءات القرآنية بين الدرس الصوتيّ القديم والحديث: ١٣٦.

(٢٦) ظ: جوهر الكنز: ابن الأثير الحلبيّ: ٩١.

(٢٧) ظ: لسان العرب: مادة (جنس):١ / ٥١٤.
(٢٨) ظ: كتاب العين: الفراهيديّ : ١٦٠.
(٢٩) المثل السائر: ابن الأثير:١ / ٢٤٦.
(٣٠) ظ: الكتاب: سيبويه: ١ / ٢٤.

(٣١) ظ: البديع: ابن المعتز: ٢٥، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطورها: د. أحمد مطلوب:٢ /٥٢.

(٣٢) ظ: كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكريّ: ٣٢١.

(٣٣) ظ: الفهرست: ابن النديم: ٥٩.

(٣٤) ظ: المصدر السابق نفسه، المقتضب: المبرّد: مقدّمة المحقق:١ / ٦٣.

(٣٥) قواعد الشعر: ٥٦.

(٣٦) نقد الشعر: ١٦٢.

(٣٧) ظ: المصدر السابق نفسه، وينظر بيت زهير في: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة أبي العبّاس ثعلب: ١٤٨.

(٣٨) ظ: قواعد الشعر: ٥٦.

(٣٩) ظ: نقد الشعر: ١٦٢، البديع: ٢٥.

(٤٠) حلية المحاضرة: الحاتميّ:١ / ١٤٢.

(٤١) معجم البلاغة العربيّة: د. بدوي طبانة:١/١٥٥.

(٤٢) ظ: الوساطة: الآمديّ: ٤٢، العمدة:٣٢٢/١، البديع في الشعر: ١٤، المثل السائر:٢٤٦/١.
(٤٣) الإيضاح: ٥٣٥-٥٣٦، التلخيص: ٣٨٨، وينظر بيت أبي تمّام الأول في ديوانه: ١/ ٢٠٧، وبيته الثاني في ديوانه: ٣/ ٣٤٧.

(٤٤) ظ: الإيضاح: ٣٨٩، التلخيص: ٣٩٢.

(٤٥) ظ: خزانة الأدب: الحمويّ: ٢٥.

(٤٦) المكان نفسه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٤٧) ظ: المكان نفسه.

(٤٨) ظ: الطراز:٣٥٩/٢، معترك الأقران: السيوطيّ:٤٠٠/١.

(٤٩) ظ: معجم البلاغة العربيّة: ١٥٦/١.

(٥٠) جرس الألفاظ ودلالتها: ٢٨٢.

(٥١) ظ: معجم البلاغة العربيّة: ٣٨٦/١، وينظر تخريج البيت في: خزانة الأدب: ٩٧/١.

(٥٢) ظ: معجم البلاغة العربيّة: ١/ ٤٣٠- ٤٣١، وينظر تخريج الأبيات في: خزانة الأدب: ٩٦/١.

(٥٣) ظ: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغيّ والنقديّ عند العرب: د. ماهر مهدي هلال: ٢٧١.

(٥٤) دلائل الإعجاز: ٥٢٤، أسرار البلاغة: ٨.

(٥٥) ظ: أسرار البلاغة: ١٧.

(٥٦) المثل السائر:١ / ٢١.

(٥٧) المصدر السابق:١ / ٢٤٦.

(٥٨) الطراز:٢ / ٣٥٥.

(٥٩) جوهر الكنز: ١١١.

(٦٠) جرس الألفاظ ودلالتها: ٢٧٣.

(٦١) ظ: المصدر السابق:٢٨٤.

قائمـــــة المصــــــادر

أ- الكتـــــــــــب :

- القرآن الكريم.

- إدغام القرّاء: أبو سعيد السيرافيّ (ت ٣٦٨هـ)، تحقيق: د.محمد عليّ عبد الكريم الردينيّ، دار الشهاب – الجزائر (د.ت).

- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجانيّ (ت٤٧١ أو ٤٧٤هـ): تحقيق: هـــ ريتر، استانبول، ١٩٥٤ م.

- الأصوات اللغويّة: د.إبراهيم أنيس، ط٤، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة،١٩٧١م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- إعراب القرآن: أبو جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل النحّاس (ت ٣٣٨ هـ)، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، وزارة الأوقاف، بغداد، ١٩٧٨م.

- الإيضاح: جلال الدين القزوينيّ (ت٧٣٩هـ)، شرح وتعليق وتنقيح: د. محمد عبد المنعم خفاجيّ، ط٣، دار الكتاب العالميّ، بيروت ١٩٨٩م.

- البديع في نقد الشعر: أسامة بن منقذ بن مرشد أبي الظفّر الشيرازيّ (ت٥٨٤هـ)، تحقيق: د. أحمد أحمد بدويّ، و د. حامد عبد المجيد، القاهرة، ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م.

- التلخيص في علوم البلاغة: جلال الدين القزوينيّ، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقيّ، ط١، المكتبة التجاريّة الكبرى، مصر، ١٩٠٤م.

- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغيّ والنقديّ عند العرب: د. ماهر مهدي هلال، دار الحريّة للطباعة، بغداد، ١٩٨٠م.

- جوهر الكنز: نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبيّ (ت٧٣٧هـ)، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندريّة (د.ت).

- حسن التوسل إلى صناعة الترسل: شهاب الدين محمود الحلبيّ (٦٣٠هـ)، تحقيق: د. أكرم عثمان يوسف، بغداد، ١٩٨٠م.

- حلية المحاضرة في صناعة الشعر: أبو عليّ محمّد بن الحسن بن المظفّر الحاتميّ (ت ٣٧٧هـ)، تحقيق: د. جعفر الكتانيّ، بغداد، ١٩٧٩م.

- خزانة الأدب وغاية الأرب: أبو بكر عليّ بن حجة الحمويّ (٨٣٧هـ)، تحقيق: عصام شعيتو، ط١، دار ومطبعة الهلال، بيروت، ١٩٨٧م.

- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت٣٩٢ هـ) تحقيق: محمد علي النجار، ط٢، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت (د.ت).

- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجانيّ، تحقيق: محمود محمّد شاكر، نشر مكتبة الخانجيّ، مطبعة المدنيّ، القاهرة ١٩٨٤م.

- ديوان أبي تمّام (شرح الخطيب التبريزي)، تحقيق: محمّد عبدة عزّام، ط٤، دار المعارف، مصر، ١٩٨٢م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- السبعة في القراءات: أبو بكر أحمد بن موسى بن العبّاس بن مجاهد (ت٣٢٤هـ)، تحقيق: د. شوقي ضيف، ط٢، القاهرة، ١٩٥٢م.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة الامام أبي العبّاس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب (ت٢٩١هـ)، نسخة مصوّرة عن دار الكتب، الناشر الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة،١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلويّ (٧٤٩هـ)، ط٢، دار الكتب العلميّة، بيروت ١٩٨٢م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو عليّ الحسن بن رشيق القيروانيّ (ت٤٥٦هـ)، تحقيق: محمّد عبد القادر أحمد عطا، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠١م.
- الفهرست: ابن النديم (ت٣٨٠هـ)، مكتبة خيّاط، بيروت١٩٦٤م.
- في البحث الصوتيّ عند العرب: د.خليل إبراهيم العطيّة، دار الحريّة للطباعة، بغداد،١٩٨٣.
- في اللهجات العربيّة: د. إبراهيم أنيس، ط٢، القاهرة، ١٩٥٢م.
- القراءات القرآنية بين الدرس الصوتيّ القديم والحديث: د.ميّ فاضل الجبوريّ: ط١، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، ٢٠٠٠م.
- قواعد الشعر: أبو العبّاس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (ت٢٩١هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجيّ، القاهرة ١٩٤٨م.
- الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه (ت١٨٠هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمّد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، ١٩٨٨م.
- كتاب البديع: عبد الله بن المعتز (ت٢٩٦هـ)، تحقيق: اغناطيوس كراتشقوفسكي، لندن ١٩٣٥م.
- كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عليّ محمّد البجّاويّ ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت ١٩٨٦م.
- كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت١٧٥هـ)، ط١، دار أحياء التراث العربيّ، بيروت٢٠٠١ م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: أبو محمّد مكي القيسيّ (ت٤٣٧هـ)، تحقيق: محي الدين رمضان، دمشق، ١٩٧٤.
- لسان العرب: ابن منظور (ت ٧١١هـ)، إعداد وتصنيف: يوسف خيّاط، نديم مرعشلي، دار لسان العرب (د.ت).
- مباحث في علم اللغة واللسانيّات: د. رشيد العبيديّ، ط١، دار الشؤون الثقافيّة، بغداد،٢٠٠٢م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده، مصر، ١٩٣٩م.
- معاني القرآن: أبو زكريّا يحيى بن زياد الفرّاء (ت٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين السيوطيّ (ت٩١١هـ)، تحقيق: علي محمّد البجاويّ، القاهرة، ١٩٧٣ م.
- معجم البلاغة العربيّة: د. بدوي طبانة، ط١، منشورات جامعة طرابلس/كليّة التربية، ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م.
- المقتضب: أبو العبّاس المبرّد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمّد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، القاهرة، ١٣٨٥هـ.
- المنصف لكتاب التصريف: أبو عثمان بكر بن محمّد المازنيّ (ت ٢٤٩هـ)، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، ط١، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده، مصر، ١٩٥٤م .
- النشر في القراءات العشر: شمس الدين محمّد بن محمّد الجزريّ (ت ٨٣٣هـ)، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت ١٩٧٨.
- نقد الشعر: أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ)، تحقيق وتعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- الوساطة بين المتنبيّ وخصومه: القاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجانيّ (ت٣٩٢هـ)، تحقيق وشرح: محمّد أبو الفضل إبراهيم وعليّ محمد البجاوي، ط٤، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ وشركائه ١٩٦٦.

ب- البحوث:

١- جهود الكوفيّين في علم الأصوات: د. خليل عطيّة، مجلة كليّة الآداب/جامعة البصرة: ع ٢٢، س ٢٤، ١٩٩١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com